مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 5 (رت 67) السنة: 2022

سؤال العلمية في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني
قراءة في ضوء الأسلوبية

Scientific question in the theory of systems by Abdel-Qahir Al-Jarjani reading in the light of stylistic

أ.محمد حمروش[1]
جامعة الجزائر 2
hamrouchemohamed2018@gmail.com
أ.د حسين بن زروق
جامعة الجزائر 2
hocine_benzerroug@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2019/06/12 القبول 2021/12/17 النشر على الخط 2022/06/05
Received 12/06/2019 Accepted 17/12/2021 Published online 05/06/2022

ملخص:

يتناول هذا البحث مسألة العلمية في المجال النقدي والبلاغي؛ وذلك من خلال نظريتين تراثية وحداثية؛ تتمثل النظرية التراثية في نظرية النظم، والنظرية الحداثية في الأسلوبية. وقد أبرز البحث جوانب التقارب بين النظريتين، كما أبرز أنَّ كليهما طرح سؤال العلمية، وكان هذا السّؤال فيهما منطلقا لتطورهما من خلال الإجابات التي قدَّماها.

الكلمات المفتاحية: العلمية، النظم، الأسلوبية، الجرجاني، البلاغة.

Summary

This research aims at proving the hypothesis that binary conjugation is one of the most important means of textual coherence and attempts to prove it by the research in the aspects of conjugation in the means of consistency and harmony (plot)

Keywords: scientific, systems, stylistic, jerjani, rhetoric.

[1] المؤلف المراسل: **محمد حمروش** البريد الالكتروني: **hamrouchemohamed2018@gmail.com**

مقدمة:

من المسائل المشتركة بين النظم والأسلوب، مسألة الذاتية والموضوعية، أو مسألة العلمية والفنية في دراسة كل منهما، وقد تطرق إلى هذه المسألة الأسلوبيون المعاصرون، كما كانت محل دراسة وبحث عند البلاغيين القدامى وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني، الذي كان سؤال العلمية محور البحث والدراسة عنده، بل هو المسألة الجوهرية في كتابه "دلائل الإعجاز"، وربما كان هو الدافع الرئيس له في تشكيل نظرياته اللغوية، ذلك أن مهمة المناهج العلمية أو الدراسات الموضوعية هي صياغة مقولات وصفية صالحة، ومناهج تحليل قابلة للتطبيق بشكل دقيق على عدد كبير من الموضوعات الخاصة، وانطلاقا من هذا المفهوم للعلمية فهل يمكن أن نُخضع دراسة كل من النظم والأسلوب إلى هذه المناهج العلمية الحديثة؟ وبالأحرى هل يمكن أن نتجاوز الدراسة الذاتية لكل منهما إلى دراسة علمية وفق مناهج متفق عليها ومعايير علمية صارمة؟ وما موقف كل من الأسلوبيين المعاصرين للدراسة الموضوعية للأسلوب؟ وعبد القاهر الجرجاني من دراسة النظم دراسة موضوعية؟ هذا ما نحاول أن نبحثه في ورقتنا هذه بإذن الله تعالى.

النظم وعلم الأسلوب

1. مفهوم النظم

أ- النظم في المعاجم:

جاء في معجم العين: " النظم نظمك خرزاً بعضه إلى بعض في نظام واحد، وهو في كل شيء، حتى قيل: ليس لأمره نظام، أي: لا يستقيم طريقته، والنظام: كلُّ خيطٍ ينظم به اللؤلؤ أو غيره فهو نظام، والجميع نظم، وفعلك النظم والتنظيم"[1]، وفي مقاييس اللغة: "نظم: النون والظاء والميم: أصلان يدل على تأليف شيء وتأليفه"[2] ، وفي لسان العرب:" النظم: التأليف، نظمه ينظمه نظماً ونظاماً، ونظمه فانتظم وتنظم، ونظمت اللؤلؤ أي: جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته، والنظم: المنظوم، وصف بالمصدر[3]".

والمتأمل في هذه التعريفات اللغوية لكلمة "النظم" يجد لها دلالتين:

1. **الدلالة الحسية:** وتتمثل في أمرين: نظم الخرز واللؤلؤ بعضه إلى بعض، والنظام: وهو الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. فكلمة النظم تحمل معنى الفعل ومعنى الأداة.

2. **الدلالة المعنوية:** ويطلق على كل أمر فيه تأليف، أي كل شيء قرن بآخر أو ضم إليه. ومنه: نظم الشعر، وهو عبارة عن ضمِّ الكلمات بعضها إلى بعض، وكذلك نظم الجراد وهو الكثير كما جاء في الصحاح[4]، وإذا كان كذلك فسيضم بعضه إلى بعض. فيكون المعنى الثاني هو المعنى الأجمع والأشمل لكلمة النظم، فكلُّ تأليف بين الأشياء وجمع لها يسمَّى نظماً، ومن ذلك "يقال: نظم القرآن عبارته التي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة"[1]، وهذا المعنى هو الذي ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز[2].

---

[1]- الخليل بن أحمد: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم أنيس، دار ومكتبة الهلال، دط، ج8، ص: 165، 166.

[2]- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979، ج5، ص: 445.

[3]- ابن منظور الأنصاري: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط3، ج12، ص: 578.

[4]- ينظر، الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عطار، دار الملايين، بيروت لبنان، ط4، 1987، ج5، ص: 2041.

وقد صار مصطلح النظم بعد ذلك مصطلحا ذا مدلولين[3]:

1- النظم من حيث إنه نوع من أنواع الكلام، فهو الشعر مقابلاً للنثر.

2- طريقة تأليف الكلام، واختيار عناصره، وبناء بعضها على بعض.

والمعنى الثاني هو الذي يهمنا في هذا المقام، وهو المعنى الذي يقصده الباحثون عندما يتكلمون عن فكرة النظم.

ب- النّظم قبل عبد القاهر الجرجاني:

فكرة النظم من حيث هي فكرة كانت موجودة قبل عبد القاهر الجرجاني، يقول أحمد مطلوب: « وإذا أردنا أن نتلمسها في كتب أخرى بعد أن رأينا ارتباطها بكتب النحو، وأقدم إشارة عثرنا عليها في الكتب العربية عبارة ابن المقفع (ت 142هـ) التي أشار فيها إلى صياغة الكلام »[4] ، ثم تحدث عن هذه الفكرة أيضا بعد ابن المقفع، سيبويه (ت 180هـ)، وبشر بن المعتمر (ت 210هـ)، وكلثوم العتَّابي (ت 220هـ)، والجاحظ (ت255هـ)، والخطابي (ت 388هـ)، وأبو بكر الباقلاني (ت402هـ)، والقاضي عبد الجبار (ت415هـ)، وغيرهم.

غير أنَّنا نجد عند أكثر أولئك الأعلام استخداماً لمصطلحات أخرى غير مصطلح النظم، فنجد ابن المقفع يستعمل مصطلح الصياغة [5]، وسيبويه يستعمل مصطلح الاستقامة[6] ، وأول استخدام لمصطلح النظم كان في القرن الثالث، مع الجاحظ الذي ألف كتاباً لم يعثر عليه سماه (نظم القرآن)، وقد تحدث عنه الجاحظ نفسه في كتابه (الحيوان) [7]، كما تحدث أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) [8]، إلا أن القاضي عبد الجبار في كتابه (المغني) كان أكثر وضوحاً حينما رأى الفصاحة والبلاغة تقومان على ضم الكلمات وتقاربها[9].

ج- النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

يُعدُّ النظم عند عبد القاهر الجرجاني أساس تفكيره اللغوي، وقد بلغ عنده مرحلة النضج الكامل، فقد كان مفهومه – عنده – واضحاً في معناه، مؤصلاً في قواعده، مفصلاً في شواهده، ومطبقاً على نصوص قرآنية وشعرية كثيرة، حتى إنَّ القارئ لكتابه – دلائل الإعجاز- ليخرج بفهم واضح لفكرة النظم وأسسها. يقول عبد القاهر الجرجاني في مدخل كتابه:«معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض»[10]. فالنظم – عنده- تعلق للكلم بعضها ببعض، لكن هذا التعليق

---

[1]- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار الدعوة، دط، دت، ج2، ص 933.

[2]- حاتم الضامن: نظرية النظم تاريخ وتطور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد العراق، دط، 1979، ص4.

[3]- ينظر، أحمد سعد محمد: نظرية البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، ط 1، 2009، ص11.

[4]- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، بيروت لبنان، ط1، 1973، ص 52، 53.

[5]- عبد الله بن المقفع: الادب الصغير، تح: وائل بن خلف، دار ابن القيم، الإسكندرية مصر، دط، ص22.

[6]- سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط3، 1988، ج1، ص25.

[7]- بو عثمان الجاحظ: الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 1424هـ، ج1، ص11.

[8]- أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد ضقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997، ص06.

[9]- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده، ص55.

[10]- .عبد القاهر الجرجاني: مدخل دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط1992/3، ص4.

في اللغة العربية لا يكون كيفما كان، بل إنَّ له طرائق مخصوصة، وأوضاعا معروفة، وحالات معدودة، يشرحها عبد القاهر ويوضحها بقوله: « والكلم ثلاث: اسم، وفعل، وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تغلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعرق حرف بهما»[1]

كما أنَّ هذه الأوجه الثلاثة للتعليق لها حالات محددة لا تخرج عنها، يفصلها أيضاً عبد القاهر الجرجاني في مدخل الدلائل . فهذه الصورة الواضحة لمفهوم التعليق وأحواله في اللغة العربية تجعلنا نضع أيدينا على أول مفاهيم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، وأركانه التي يقوم عليها، هذا الركن ذكره عبد القاهر أثناء تلخيصه لتلك الأحوال السابقة في مصطلحين أصبحا بعده المصطلحين السائدين في علم النحو وعلوم البلاغة، فقال: « ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنه لا بد من مسند ومسند إليه»[2]، فالمصطلحان كما رأينا هما: المسند والمسند إليه، فيكون معنى التعليق الذي ذكره عبد القاهر الجرجاني هو الإسناد الذي يكون مسند ومسند إليه تقوم بينهما علاقة اقتضاء ولزوم، فالمبتدأ يستلزم خبراً، والفعل يستلزم فاعلاً أو مفعولاً، وأداة التشبيه تستلزم مشبهاً أو مشبهاً به... ونستنتج من كلام عبد القاهر السابق أن أول ركن يقوم عليه مفهوم النظم – عنده– ولا بد من توفره هو: الإسناد. لكنَّ هذا الإسناد لا يكفي وحده في تشكيل مفهوم النظم، بل يتعداه إلى مرحلة أخرى يتكلم عنها عبد القاهر بقوله: «اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها»[3]، فهذا النص يبدأ بالتأكيد على الركن السابق، وهو ركن الإسناد؛ وهو أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، والعمل على قوانينه وأصوله، ثم يطالعنا بمصطلحين جديدين هما: المناهج والرسوم.

يشرح عبد القاهر هذين المصطلحين، ويبين أن المقصود بهما: معرفة الوجوه والفروق، فلا يكفي في "باب الخبر" مثلاً أن يعرف أن الخبر هو الجزء المتم لفائدة المبتدأ، وأنه يكون مرفوعاً، بل لابد أن يعرف أحواله ووجوهه. ومن ذلك مثلا[4]: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، فهذه كلها احتمالات الخبر في أي تركيب، فلا بدّ لناظم الكلام ان يعرفها وينظر فيها، وهكذا في كل باب من أبواب النحو. وهذا ما يسمى بمعرفة أحوال الإسناد، فيكون الركن الثاني من أركان النظم بعد الإسناد هو معرفة أحواله، لكن هذه المعرفة ليست من أجل المعرفة، بل من أجل "أن يعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به من حيث ينبغي له".

وبذلك كله يتم معنى الكلام وفائدته، ويتبين مقصود المتكلم وغرضه، ويمثل عبد القاهر لهذا الأمر بقوله: «نحو أن يجيء بـ."ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد الاستقبال، وبـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون وأن لا يكون، وبـ" إذا" فيما أنه كائن»[5]ونستنتج من ذلك كله أن للنظم ثلاثة أركان، هي:

---

[1]- المصدر السابق: ص4.

[2]- ينظر، المصدر السابق: ص7.

[3]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 81.

[4]- المصدر نفسه.

[5]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص: 81.

1- التركيب: ويكون أقله وحدُّهُ الأدنى أن يتألف من مسند ومسند إليه، ويمكن أن نسمي هذه المرتبة بمرتبة الصحة؛ لأن فيها يعرف صحة الكلام من عدمه.

2- الدلالة: وتكون بمعرفة أحوال الإسناد، ووضع كل حال موضعها الصحيح، ويمكن أن نسمي هذه المرحلة بمرتبة الإفادة، لأن فيها يكون غرض المتكلم إفادة السامع بدلالة واضحة.

3- الجمال: وتكون بإخراج الكلام في أحسن صوره وأبهاها، وذلك نتيجة تفاعل بين التركيب والدلالة، ويمكن أن نسمي هذه المرحلة بمرتبة الإمتاع، لأن فيها يكون غرض المتكلم إمتاع السامع بعد إفادته.

2- مفهوم الأسلوب:

أ_ الأسلوب في المعاجم العربية:

جاء في المعاجم العربية في معنى الأسلوب ما يلي:« يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب... والأسلوب: الوجه والطريق والمذهب، يقال: إنهم في أسلوب شرٍّ، ويجمع في أساليب»[1] و"الأساليب الطرق والفنون.

وكلُّ شيء امتدَّ على غير امتناع فهو أسلوب، ويقال لعنق الأسد أسلوب لأنها لا تثنى"[2]، و"سلكت أسلوب فلان، طريقته"[3].

والأسلوب بالضم: الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي: أفانين منه[4] ، وبالنظر إلى التحديد اللغوي لكلمة الأسلوب يمكن تبيّن أمرين:

الأول: البعد المادي الذي يمكن أن نلمسه في تحديد مفهوم الكلمة من حيث ارتبطت في مدلولاها بمعنى الطريق الممتد، أو السطر من النخيل، ومن حيث ارتباطها أحياناً بالنواحي الشكلية كعدم الالتفات يمنة أو يسرة.

الثاني: البعد الفني الذي يتمثل في ربطها بأساليب القول وأفانينه، كما نقول: سلكت أسلوب فلان: طريقه وكلامه على أساليب حسنة [5]هذا المفهوم اللغوي – كما سنعرف ذلك- لا يكاد يختلف أبدا عن المعنى الاصطلاحي، بل إنَّ هذه المعاني كلها تنتهي بنا عند فكرة إذا أردنا استعمالها في باب الأدب كانت ملائمة، فالأسلوب هو فنٌّ من الكلام يكون قصصاً أو حواراً، تشبيهاً أو مجازاً، كتابة أو حِكماً وأمثالاً، فإذا صحَّ هذا الاستنباط كان للأسلوب معنى أوسع، إذ يتجاوز هذا العنصر اللفظي فيشمل الفن الأدبي الذي يتخذه الأديب وسيلة للإقناع أو التأثير[6].

ب- الأسلوب في الأسلوبية الحديثة:

اختلف الأسلوبيون في تعريف الأسلوب اختلافاً كبيراً، وإن كانوا كلهم يتفقون على الحد الأدنى منه، وهو المفهوم اللغوي الذي يقضي بأنه الطريق والمذهب، ويعدُّ اللغوي الفرنسي (**بوفون buffon**) هو أول من عرَّف الأسلوب تعريفاً نال قسطاً كبيراً من

---

[1]- أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1 /2001، ج301/12.

[2]- أحمد بن فارس: مجمل اللغة، مؤسسة الرسالة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، بيروت لبنان، ط1986، ج470/1.

[3]- جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1/ 1998، ج468/1.

[4]- ابن منظور، لسان العرب: 473/1.

[5]- محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص 10.

[6]- أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط8، 1991، ص41.

الشهرة والانتشار، وحظاً أكبر من الفهم الذي تباين حيناً وتطابق حيناً آخر، حيث يقول: «**الأسلوب هو الشخص نفسه le style est l'homme méme**».[1] وهذا التعريف كان ثورة على المفاهيم القديمة للأسلوب التي كانت تعرفه طبقيّاً لا فنيّاً، وهذا المفهوم للأسلوب وإن ظهر في القرن الثامن عشر وساد فيه، إلاَّ أنَّهُ لم يغب في هذه العصور، وظلّ يُنظر إليه على أنه تحوّل مهم في النظرية الأسلوبية، فلذلك لا نجد دراسة أسلوبية إلا وتجعل هذا المفهوم للأسلوب في صدارة مفاهيمه.

وقد أخذت تعريفات الأسلوب تتطور وتأخذ مفاهيم محددة موازاة بالتطور الذي شهدته الأسلوبية، فـ شارل بالي (CH. BALLY) الذي يُعَدُّ مؤسس الأسلوبية الحديثة، كان "مفهوم الأسلوب عنده يتمثل في مجموعة من عناصر اللغة المؤثرة عاطفياً على المستمع أو القارئ [2]، لكن هذا التأثير على المستمع أو القارئ ليس شيئاً خارجاً عن اللغة، بل هو خاصية ذاتية لها، " فحصر مدلول الأسلوب في تفجير الطاقات التعبيرية الكامنة في صميم اللغة بخروجها من عالمها الافتراضي إلى حيز الوجود اللغوي... فكأن اللغة مجموعة شحنات معزولة، والأسلوب هو إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر، كما في مخبر كيميائي"

ثم نجد ميكائيل ريفاتير (M.RIFFATERRE) يرى "أنَّ الأسلوب هو ذلك الإبراز الذي يفرض على انتباه القارئ بعض عناصر السلسلة التعبيرية، بحيث لا يمكن لهذا القارئ أن يهمل تلك العناصر دون تشويه النص، كما أنه لا يمكنه أن يكتشفها دون أن يجدها دالة ومتميزة"[3].

ويكون "هدف تحليل الأسلوب هو الإيهام الذي يخلقه النص في ذهن القارئ"[4]، فالأسلوب على هذا الأساس يكون مهمة مزدوجة مزدوجة وعملية مشتركة بين المتكلم والسامع أو القارئ؛ فهو من جهة الباث "حكم القيادة في مركب الإبلاغ، لأنه تجسيد لعزيمة المتكلم في أن يكسو السامع ثوب رسالته في محتواها من خلال صياغتها"[5]، وهو من جهة المتقبّل "الطريقة التي بها يفك القارئ شفرة النص"[6].

كما نجد تعريفات أخرى للأسلوب اتخذت معايير عامة في تحديده، من ذلك تعريفه على أنه اختيار (CHOIX)؛ حيث "يرى بعض الباحثين أن اللغة المعينة هي عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير، ومن ثم فإنَّ الأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار، أو انتقاء يقوم به المنشئ لمسات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين"[7]، فالأسلوب في هذه الرؤية ينطلق من الباث نفسه، فهو المشكِّل للأسلوب، وتشكيله للأسلوب يكون بوعي تام، لأنه يقوم على استعراض قائمة من الاختيارات، ثم الانتقاء من بينها.

ويعرّف الأسلوب أيضاً بأنه انحراف (DIVIATION)، أي أنه " خروج فردي على المعيار لصالح المواقف التي يصورها النص، مع الإيمان بإمكانية تحديد هذه المخالفات بواسطة خصائص إحصائية تتعلق بالسمات البنيوية التي تعرف قدراً ما من الاختيار

---

[1]- يلي ساندريس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد جمعة، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 2003، ص28، 29.

[2]- صلاح فضل: علم الأسلوب، ص97.

[3]- ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني، منشورات سال، ط1، 1993، ص21.

[4]- ينظر، حسن ناظم، البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2002/1، ص73.

[5]- عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص81.

[6]- حسن ناظم: البنى الأسلوبية، ص73.

[7]- سعد مصلوح: الأسلوب، عالم الكتب، القاهرة مصر، ط1992/3، ص 37، 38.

بخصوص هذا النظام الإشاري [1]، فهذا الخروج الفردي يقتضي أن هناك أساليب معيارية، فيأتي هذا الأسلوب ليفارقها وينحرف عنها "وأداة التحليل الأسلوبي عند أصحاب هذا الرأي هي المقارنة بين الخصائص والسمات اللغوية في النص النمط مرتبطة بسياقاتها، وبين ما يقابلها من خصائص وسمات في النص المفارق[2]. وينظر البعض إلى الأسلوب بوصفه إضافة (ADDITION)، وهذا يفترض "ابتداء وجود تعبير محايد لا يتسم بأي سمة أسلوبية محددة يمكن أن يسمى بالتعبير غير المتأسلب، ثم تكون السمات الأسلوبية إضافة إلى التعبير المحايد لكي تنحو به منحى خاصاً موافقاً للعبارة عن سياق بعينه[3]، وهذه الإضافة إضافات متنوعة، فهي قد تكون "إضافة عناصر وجدانية، أو عرضاً مثيراً، أو وحدة بناء فني..."[4]

3- الأسلوب في التراث العربي:

إذا طرقنا باب التراث وتصفحنا آثاره وجدنا كلمة الأسلوب حاضرة في كتبهم ودراساتهم، وقد قام بهذه المهمة بعض الباحثين المعاصرين [5] حيث تتبعوا ورود هذه الكلمة عند بعض الأعلام التراثية، فوجدوا أن هذه الكلمة قد وردت عند ابن قتيبة (ت 276هـ) في كتابه "تأويل مشكل القرآن"، وأبي سليمان الخطابي في كتابه "بيان إعجاز القرآن"، وأبي بكر الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن"، وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وجار الله الزمخشري (ت 538هـ) في كتابه "الكشاف"، وحازم القطاجني" في كتابه" منهاج البلغاء وسراج الأدباء"، وابن رشيق في كتابه "العمدة"، وعبد الرحمن بن خلدون في "مقدمته" وغيرهم كثير، ومن الملاحظات التي لاحظها شكري عياد على هذه التناولات للأسلوب أن كلمة (الأسلوب) قد بقيت عندهم مبهمة المعنى لأنهم فهموا منها تارة (النوع الأدبي) أو (الموضوع)، وتارة طريقة الصياغة [6]، ونجد هذا الإبهام خاصة خاصة عند المشارقة من أولئك الأعلام، أما المغاربة فنجد منهم ناقدين " عنيا بالأسلوب عناية ظاهرة ، وتركا لا أكمل تحديد نعرفه لهذا المفهوم في النقد العربي[7] ، هذان العلمان هما: حازم القرطاجني وعبد الرحمن بن خلدون. وهذه الملاحظة من شكري عياد صحيحة إذا حملناها على وضوح مفهوم الأسلوب عند هذين العلمين وضوحاً تاما، لكننا نريد أن نؤكد أنَّ مفهومهما عن الأسلوب لا يختلف كثيراً عن مفهوم علمين مشرقيين آخرين هما: ابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني.

4- الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني:

وردت كلمة" الأسلوب" في موضعين من "دلائل الإعجاز"، جاءت أولاهما في معرض الحديث عن السجع، وأن مرده إلى المعاني لا إلى الألفاظ، حيث يقول عبد القاهر: "فصعوبة ما صعب من السجع، هي صعوبة عرضت في المعاني من أجل الألفاظ، وذاك أنه

---

[1]- فيلي ساندرس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص36.

[2]- سعد مصلوح: الأسلوبية، ص43.

[3]- سعد مصلوح، ص44.

[4]- فيلي ساندرس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، ص33.

[5]- ينظر، شكري عياد: مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التحديد، مجلة فصول، م1/ع1، ص49- 52، ومحمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، والأسلوبية، ص38، 39.

[6]- شكري عياد: مفهوم الأسلوب من التراث النقدي ومحاولات التجديد، ص 50

[7]- المرجع نفسه، ص 51.

صعب عليك أن توفق بين معاني تلك الألفاظ المسجعة وبين معاني الفصول التي جعلت أردافاً لها، فلم تستطع ذلك إلا بعد أن عدلت عن أسلوب إلى أسلوب، أو دخلت في ضرب المجاز، أو أخذت في نوع من الاتساع"[1].

وفي الموضع الثاني جاءت كلمة الأسلوب في معرض تعريف الاحتذاء، حيث يقول: "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه، أن يبتدئ الشاعر في معنى له غرض أسلوباً، والأسلوب هو الضرب من النظم والطريقة فيه، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيئ به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها، فيقال: قد احتدى على مثاله"[2] هذان الموضعان في الدلائل أثارا نقاشا واسعا بين الباحثين في مفهوم الأسلوب عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقته بمفهوم النظم، فاتفقوا على تقارب مفهوم الأسلوب عد عبد القاهر بمفهومه في الأسلوبية الحديثة، فواضح من كلام عبد القاهر أنه جعل الأسلوب الطريقة في التعبير والتأليف، وهذا هو الحد الأدنى الذي يتفق عليه الأسلوبيون المعاصرون، لكن أولئك الباحثين اختلفوا في علاقة الأسلوب بالنظم على رأيين:

الرأي الأول: يرى أن النظم والأسلوب شيء واحد؛ حيث يمثلان – عند الجرجاني- التنوع اللغوي الفردي الذي يصدر عن وعي واختبار، ويعتمد في نسقيته على إمكانات النحو[3] ، وما يبدو من منطوق الجرجاني أنه يخالف بينهما فيجعل النظم النظم عاماً، والأسلوب خاصاً لا يغير من الأمر شيئاً؛ إذ عصب النظم وهو ترتيب الكلمات وفقاً لمعاني النحو هو نفسه ما يتحقق في الأسلوب الذي يعزى لشاعر أو كاتب معين[4].

الرأي الثاني: يرى أنهما مختلفان، ومنطوق الجرجاني واضح في ذلك فهو يجعل الأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه، والفارق بينهما كالفارق بين اللغة والكلام، فالنظم ينتمي إلى اللغة والأسلوب ينتمي إلى الكلام[5]. وبهذا يكون الأسلوب جزءاً من النظم وتطبيقاً فعليّاً له، أو "الهيئة التي يخرج بها الكلام لفظاً ومعنى من خلال استغلال إمكانات النحو"[6]. والذي نراه أن الأسلوب والنظم والنظم – وبغض النظر عن طبيعة العلاقة بينهما- متصلان اتصالاً وثيقاً، فلا يمكن أن يتصور نظم من غير أسلوب، ولا أسلوب من غير نظم، وهذا هو الذي يظهر من كلام عبد القاهر ويتضح منه، فيقول: «الأسلوب هو الضرب من النظم والطريقة فيه» يتضح منه أن لكل نظم أسلوباً يظهر فيه، ولكل أسلوب نظم يتحكم فيه.

3- النظم والأسلوب بين الذاتية والموضوعية:

من المسائل المشتركة بين النظم والأسلوب والتي بُحِثت بحثا مستفيضاً، مسألة الذاتية والموضوعية في دراسة كل منهما، وقد تطرق إلى هذا الأسلوبيون المعاصرون، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز".

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص62.

[2]- المصدر السابق، ص468، 469.

[3]- ينظر، محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، ص22، 23.

[4]- ينظر، شفيع السيد: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، مكتبة الآداب، القاهرة،ط2009/2، ص80.

[5]- ينظر، نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2005/7، ص163، 164.

[6]- سامي عبابنة: التفكير الأسلوبي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط2010/2، ص101.

أ_ الأسلوب بين العلمية والفنية:

نجد الأسلوبيين – خاصة الأوائل منهم – قد تباينت رؤاهم في منهجية دراسة الأسلوب، فمنهم من رأى أن الأسلوب معطى ذاتي فدراسته بعيدا عن الذاتية مجازفة وتعدٍّ، فالذات هي المنشئة له، والذات هي المتحكمة فيه، والذات هي المحللة له، ولا يجوز بحال تطبيق المعايير العلمية عليه لأن ذلك مستحيل ابتداء، كما أنه – إن حصل – سيقضي على جماليات الأسلوب بصرامة جافة. وقد كان هذا الشطط الذاتي رداً على شطط آخر، وهو الشطط العقلاني الذي ظهر بعد شارل بالي ويمكن أن نقول إنه حطم الأسس المنهجية التي وضعها.[1] ، فنشأ عن التيار الذاتي ما يعرف بمنهج التذوق الأسلوبي[2] ،ونجد من هؤلاء بيرجيرو (P. GIRO) يقلل من أي محاولة لإخضاع الدراسة الأسلوبية للمعايير العلمية، بل ويجزم أن النقد عموماً لا سبيل له إلا الحدس والذوق[3] ، وهذا الجزم من جيرو باستحالة تصور علمي للنقد الأسلوبي،بل واستحالة ذلك، جاء نتيجة استسلام لذاتية الأسلوب الغالبة، التي تنقض كل محاولة موضوعية، ويعبر فيش (FHICH) عن هذا الموقف صراحة فيقول: «أعتقد بأن ما أؤكده هو أنني – بالأحرى- أن أسلم بالذاتية وأن أضبطها بدلاً من الموضوعية التي بدا أخيراً أنها مجرد وهم[4].» غير أن أغلب الأسلوبيين يرون أنه يمكن أن نخضع الأسلوب للمنهج العلمي، بل يرون ذلك حتمية، ولا معنى – عندهم- لمقولة أن الأسلوب ظاهرة ذاتية محضة، فلا يصح إخضاعها للمنهج العلمي، ذلك أنه في كل العلوم " تختلف الظاهرة دائماً عن المنهج المستخدم في بعضها"[5] ، كما أن مهمة العلم هي صياغة صياغة مقولات وصفية صالحة، ومناهج تحليل قابلة للتطبيق بشكل دقيق على عدد وفير من الموضوعات الخاصة، مما يجعل من العبث رفض مناهج التحليل عامة لنوع من المواد النصية بحجة تفردها"[6].

هذا الإصرار على إخضاع الأسلوب للمنهج العلمي، يلزم أصحابه بإيجاد طريقة للتوفيق بين الأسلوب بذايته الطافحة، والعلم بموضوعيته الصارمة، و" أول خطوات التمييز تأتي بإقامة المنهج كحاجز معرفي بين الذات والموضوع، وهذه خطوة لابد منها لكي تبعد الذات عن استلاب الموضوع... وينتهي بذلك دور الذات الخاصة على مستوى المنهج ومستوى الباحث، وتحل الذات العالمة مع الآلة لتأسيس الواقع الجديد"[7]؛ والذي يحقق هذا الأمر المنهج اللساني، الذي يتصف بأربع صفات[8]: النسبية في مقابل الإطلاق، والديناميكية في مقابل الجمود، والاستنباط في مقابل الإسقاط، والوضعية في مقابل المعيارية. وحتى يكون علم الأسلوب علما حقيقيا يجب تعيين مجاله، ومقاصده، وإمكاناته، وحدوده، وأن يكون محكم التنظيم في مبادئه وفي غاياته.[9]

---

[1]- ينظر، عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، ص20، 21، 22.

[2]- ماهر عبد الباري: التذوق الأدبي، دار الفكر، عمان الأردن، ط2011/3، ص208.

[3]- ينظر، بيرجيرو: الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب سوريا، ط1994/2، ص148.

[4]- نقلا، حسن ناظم: البنى الأسلوبية، ص 80.

[5]- المرجع نفسه، ص67.

[6]- صلاح فضل: علم الأسلوب، ص192.

[7]- عبد الله الغدامي: تشريح النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2006/2، ص 103- 105.

[8]- المرجع نفسه، ص106.

[9]- ينظر، بيارنرتوما: مبادئ الأسلوبيات العامة، تر: محمد الزكراوي، ص 19، 20.

لكن الأسلوب – وإن خضع للمنهج العلمي – فلن يستطيع التخلص من سلطان الذاتية في دراسته وتحليله،" فلا بد إلى جانب الكفاية العلمية من قلب فني، ونفس حساسة، وطبيعة قادرة على الالتقاط والاستجابة للإيقاعات المختلفة، ومعيار الحساسية يعد أيضاً في هذا اللون من البحث معيارا علمياً، على أن لا يصبح التحليل الأسلوبي عملية شخصية بحتة غير قابلة لأن يتعامل معها الباحث، بحيث يصل كل مفسر إلى النتائج التي تروق له، دون أن نستطيع التحقق من صحتها وزيفها بأي معيار علمي، مما يجعلها حينئذ من قبيل الفن لا العلم"[1]

ونخلص مما سبق كله" أن النقد الأدبي [ومنه الأسلوب] يقف موقفا وسطا بين العلم والفن بمعناهما الدقيق، أو هو فن منظم، لأن طبيعة العلم التي تسيطر على الجزئيات مستقصية، ثم تستنبط من ذلك قوانين عامة حاسمة لا سلطان للذوق الشخصي عليها، هذه الطبيعة تخالف الواقع في النقد الأدبي الذي يصطدم دائما بهذه الأذواق المتباينة، والعبقريات الكثيرة، والفنون الأدبية المختلفة التي لا يشملها قانون عام، لذلك كان الواجب الأول على من يريد إخضاع النقد للمناهج العلمية أن يحتاط لهذه الأمور، فيجعل قوانينه بسيطة قليلة، وليحذر التقنين التفصيلي الدقيق"[2].

ب– النظم بين العلمية والذاتية:

يعدّ سؤال العلمية عند عبد القاهر الجرجاني محور البحث عنده، بل هو المسألة الجوهرية في كتابه "دلائل الإعجاز"، ويمكن أن نعده الدافع الرئيس لعبد القاهر الجرجاني في تشكيل نظرياته اللغوية.

وفي ذلك يقول عبد القاهر: «أنه لا بد لكل كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل»[3]، فعبد القاهر كان واضحاً أنه " لا لا يكتفي بالأقوال المرسلة، ويحرص على التفصيل في معرفة الخصائص وتحديدها، فإنه – بالمثل– ينفر مما شاع عند أسلافه من الوقوف في منطقة اللاتعليل، ومن اكتفائهم بالقول إنّ هذه الخصائص لا تحيط بها الصفة ولا تدركها العبارة "[4]، وأنه لا بد أن يكون للممارسة التحليلية شروط موضوعية تحكمها، وهذه الشروط الموضوعية هي:

1– الجهة المعلومة: ومعنى ذلك أن يكون للممارسة التحليلية متعلق معروف، يدركه كل الباحثين، ويكون هو مدار الاستحسان والاستقباح، ويرى عبد القاهر أن هذه الجهة المعلومة هي النظم.[5]

2– العلة المعقولة: وهو ما يعرف في المصطلح المعاصر بالتبرير المعرفي، فلا بد لذلك الاستحسان أو الاستقباح الذي علقه بجهة معلومة، أن يكون مبرراً، والتبرير عند عبد القاهر الجرجاني يكون بمعرفة الوجوه والفروق، التي يكون عليها نظم الكلام.[6]

---

[1]- صلاح فضل: علم الأسلوب: ص191، 192.

[2]- أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط1994/1، ص165، 166.

[3]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص41.

[4]- نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة، ص 157، 158

[5]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص84، 85.

[6]- المصدر نفسه، ص85.

3- الدليل الصحيح: فلا يكفي عند عبد القاهر أن يكون للتحليل جهة معلومة، وعلة معقولة، إذ لا بد لذلك كله دليل صحيح، وهذا الدليل يجب أن ينبع من اللغة نفسها وقوانينها المتمثلة في علم النحو.

4- التعبير الواضح: ويدخل في هذا الشرط على ما نفهمه من كلام الجرجاني شيئان: التفصيل والتوضيح في التحليل.[1]

وتأكيد عبد القاهر على ضرورة الرؤية العلمية الدقيقة في دراسة النصوص وتحليلها، لا يعني بحال إغفاله للجانب الذاتي، بل إنه قد أكد عليه وأولاه اهتماماً كبيراً، وجعله ركنا مهما من أركان نظريته في تحليل النصوص، ذلك "أن القواعد في الفن الأدبي ليس معناها التمسك بها كل التمسك، كما نفعل في العلوم، وإنما هي صورة تهدي وتقود إلى أقوم السبل وأرفعها"[2]، وقد تمثل الجانب الذاتي في نظرية غبد القاهر التحليلية في الذوق، وفي ذلك يقول: «واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعاً من السامع، ولا يجد له قبولاً، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة"[3].هذا الجمع بين الذوق والعلم يؤكد أن عبد القاهر استطاع "أن يلتقي بالحقيقة الصلبة التي لا جدال فيها، وهي أنه لا مفرّ في ميدان الأدب من التقاء فلسفة الفن بفلسفة اللغة"[4]

نتائج البحث:

في نهاية هذا البحث يمكن لي أن أخلص إلى النتائج التالية:

1. يُعدُّ النظم محور التفكير اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني، لكن فكرته ليست وليدة عبد القاهر الجرجاني، فقد سبقه إليها جمع من اللغويين والنحويين.
2. شهدت فكرة النظم عند عبد القاهر الجرجاني النضج والاكتمال والوضوح، وهي تقوم عنده على أركان ثلاثة، هي: المستوى التركيبي والمستوى الدلالي والمستوى الجمالي.
3. النظم والأسلوب وإن اختلف الباحثون في تحديد العلاقة بينهما، لا يستغني أحدهما عن الآخر، فلا نظم بلا أسلوب، ولا أسلوب بلا نظم.
4. النظم والأسلوب إنما يحددان تحديدا علميًّا، باتِّباع الطُّرُق العلمية المعروفة، من غير أن يُتخلى عن الجانب الذَّاتي تماماً، والمتمثل في الذوق والحَدس.

المصادر والمراجع:

1. أحمد الشايب: الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط8، 1991.
2. أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط1994/1.
3. أحمد بن فارس: مجمل اللغة، مؤسسة الرسالة، تح: زهير عبد المحسن سلطان، بيروت لبنان، ط1986.
4. أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1979.
5. أحمد سعد محمد: نظرية البلاغة العربية، مكتبة الآداب، القاهرة مصر، ط 1، 2009.

[1]- المصدر نفسه،ص 260.

[2]- أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده، ص202.

[3]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص291.

[4]- محمد زكي العشماوي: قضايا النقد الأدبي، ص311.

6. أحمد مطلوب: عبد القاهر الجرجاني: بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، بيروت لبنان، ط1، 1973.
7. أبو بكر الباقلاني: إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد ضقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997.
8. بيارنرتوما: مبادئ الأسلوبيات العامة، تر: محمد الزكراوي.
9. بيرجيرو: الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب سوريا، ط1994/2.
10. جار الله الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1/ 1998.
11. الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عطار، دار الملايين، بيروت لبنان، ط4، 1987
12. حاتم الضامن: نظرية النظم تاريخ وتطور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد العراق، دط، 1979.
13. حسن ناظم، البنى الأسلوبية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2002/1.
14. الخليل بن أحمد: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم أنيس، دار ومكتبة الهلال، دط.
15. سامي عبابنة: التفكير الأسلوبي، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط2010/2.
16. سعد مصلوح: الأسلوب، عالم الكتب، القاهرة مصر، ط1992/3.
17. سيبويه: الكتاب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط3، 1988.
18. شفيع السيد: الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي، مكتبة الآداب، القاهرة،ط2009/2.
19. شكري عياد: مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التحديد، مجلة فصول، م1/ع1.
20. عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، ط3، دت.
21. عبد القاهر الجرجاني: مدخل دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط1992/3.
22. عبد الله الغدامي: تشريح النص، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2006/2.
23. عبد الله بن المقفع: الادب الصغير، تح: وائل بن خلف، دار ابن القيم، الإسكندرية مصر، دط.
24. أبو عثمان الجاحظ: الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 1424هـ.
25. فيلي ساندريس: نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد جمعة، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 2003.
26. ماهر عبد الباري: التذوق الأدبي، دار الفكر، عمان الأردن، ط2011/3.
27. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، دار الدعوة، دط، دت.
28. محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 1994.
29. أبو منصور الأزهري: تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1 /2001.
30. ابن منظور الأنصاري: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، ط3.
31. ميكائيل ريفاتير: معايير تحليل الأسلوب، تر: حميد لحمداني، منشورات سال، ط1، 1993.
32. نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2005/7.